الرحلة للوصول إلى الحكمة العملية : الطهطاوي ودي توكفيل

روكسانة أويين *

من الإسكندرية، وفي 13 أبريلٍ عام 1826م أبحر الشاب المصري رفاعة رافِع الطهطاوي البالغ من العمر أربعة وعشرين عاماً, وعلى ظهر الباخرة (ترويت) إلى مارسيليا. وكان مع الطهطاوي على الباخرة أربعةٌ وأربعون مصرياً آخر اختارهم حاكم مصر محمد علي باشا (-1849م) ليكونوا جِزءًا من البعثة الطلابية إلى فرنسا. وقد أمكن للطهطاوي بوساطة أحد شيوخه أن ينضمَّ إلى البعثة باعتباره إماماً لها في الصلوات وفي الإرشاد الديني. وكانت البعثة واحدةً من عدة إرسالياتٍ أعدَّها محمد علي لتمكين رعاياه من الحصول على المعارف الحديثة. وقد تلقى الطهطاوي تعليمه الديني في الأزهر، أكبر المؤسسات الدينية الإسلامية بالمشرق، وبهذا الزاد المعرفي ذهب مع زملائه للتعرف على المجتمع الفرنسي والعلم الفرنسي في عهد ما بعد الثورة الفرنسيةِ في فرنسا الكاثوليكية. وعلى العكس مما كان مخطّطاً له؛ فإنّ الطهطاوي حوَّل نفسَه إلى طالبٍ أصيل ضمن البعثة، وبدون معرفةٍ مسبقةٍ باللغة الفرنسية. تعلَّم الفرنسية وأتقنها وعرف السياسة هناك, والثقافة في المعاهد والجامعات، وكتب عن ذلك كلّه في رحلته المسمَّاة: (تخْليص الإبريز في تلخيص باريز) (1834). وقد كانت تلك الرسالة بداية حياةٍ علميةٍ طويلةٍ ومكافحة، تولى خلالها الطهطاوي مناصب عدة في الدولة المصرية علمية وإدارية، وأشرف على ترجمة ألفي كتابٍ إلى العربية من التركية والفرنسية؛ مما أكسبه لقب (رائد الثقافة العربية الحديثة)، و (رائد النهضة العربية والإسلامية الحديثة)، و (المثقف العالمي)، الذي أسهم إسهاماً جليلاً في تعريف العرب والمسلمين بأوروبا القرن التاسع عشر.

وفي وقتٍ قريبٍ من عودة الطهطاوي إلى مصر عام 1831م، كان شابٌّ فرنسيٌّ اسمه ألكسيس دي توكيل أرستقراطي الجذور, عمره خمسة وعشرون عاماً، يقف على رصيف ميناء الهافر الفرنسي، للمغادرة إلى نيويورك. وكان الشاب دي توكيل وصديقه غوستان دي بومون يعملان مسجِّلين بدون أجرٍ في وزارة العدل الفرنسية. وعندما سنحت لهما الفرصة، حصلا على إجازةٍ وإيفاد لثمانية عشر شهراً للذهاب إلى الولايات المتحدة والاطّلاع على نظام السجون الأميركي، ليعودا ويكتبا تقريراً يُسهم في إصلاح النظام العقابي الفرنسي بالتجربة المقارنة. وقد كتبا التقرير المطلوب بالفعل بعد عودتهما. لكنّ تلك الرحلة القصيرة كان دافعاً لدى دي توكيل لكتابة دراسته المشهورة: الديموقراطية في أميركا في مجلدين بينهما خمس سنوات (1840م). وقد أكسب دي توكيل الكتاب شهرةً في فرنسا، ودفعه إلى حياةٍ علميةٍ جيدة، وأخرى سياسية عاصفة. أمّا في الولايات

المتحدة فقد اختلفت الآراء حول الكتاب، وادعاه اليمنييون الليبراليون، وكان هناك من قال إنه أفضل كتابٍ كُتب عن الديموقراطية، وأفضل كتاب كُتب عن أميركا.

لا تظهر مشتركاتٌ بين الطهطاوي وتوكفيل في الأصول الطبقية، والتربية، والدين، أو الالتزام السياسي. والأكثر من ذلك؛ ففي حين أنّ رحلة الطهطاوي إلى فرنسا قادته إلى بلادٍ غريبةٍ عنه تماماً؛ فإنّ رحلة توكفيل كانت أليفة بالنسبة له إلى حدٍ كبير. ولذلك ففي حين أثار كتابه: (الديمقراطية في أميركا) اهتماماً كبيراً في البلدين، وأفضى إلى نشوء تخصص العلوم السياسية، وعلم السياسة المقارن، ودراسات الديمقراطية؛ فإنّ كتاب الطهطاوي عن رحلته حظي فقط باهتمام المختصين المصريين والعرب، وباحثي النهضة؛ وما حظي بترحيبٍ في الدوائر الثقافية الفرنسية. وقد كان لرأي إرنست رنيان السلبي فيه تأثير سلبي كبير. إذ تحدث رنيان عن (كراهية العلوم) لدى المصريين والمسلمين. ولاشك أنه كان لأسلوب الطهطاوي أثرٌ في ذلك أيضاً؛ إذ ما توافق ذلك الأسلوب مع ما يعتبره الأوروبيون آنذاك منهجاً علمياً في البحث والمقارنة. لكنْ على الرغم من ذلك كلّه يشترك الكتابان في هدف البحث والتعرف على (البلاد الغريبة)، وتكوين نظريات مقارنة بهدف جلب (حكمةٍ عمليةٍ) في البلاد الأصلية للمؤلفين. فالطهطاوي ذهب إلى باريس بحثاً عن علومٍ عصريةٍ نافعة لبلاده في النهوض. وتوكفيل ذهب إلى أمريكا لدراسة ميزات الديموقراطية ومحاذيرها. وبذلك يدخل الكتابان في المنحى البيداغوجي والأخلاقي في جلب النافع من طريق التجربة والتعلُّم والانطباعات الكثيرة المنقولة.

إنّ الذي يميّز رحلتي توكفيل والطهطاوي أنهما تنضويان في سياق مشروع وطني للإصلاح والنهوض. وذلك بالإضافة إلى الفضول الشخصي لدى هذين الرجلين للتعرف والنقل والإعجاب رغم الغُربة والغرابة. وهكذا يتلاقى المشروع الوطني والفضول الشخصي في دفع الرجلين لملاحظاتٍ معينةٍ واختيارٍ معيَّن لهذا الأمر أو ذاك مما يعتقدان أنه نافعٌ في الإيصال لهدفيهما المعلنين. ولذلك فالتركيز على مسألة المشروع الوطني للدولة القومية الجديدة (والجديدة جداً في مصر) يوشك أن يوصلنا إلى تحديداتٍ للقيمة التاريخية والفعلية لرحّالة القرن التاسع عشر، قرن الدولة القومية الكبير. وتأكيداً على ذلك - أي الدخول في المشروع الوطني، نجد أنّ توكفيل خلال حياته السياسية اللاحقة اهتمّ كثيراً بالدور الفرنسي التحضيري في الجزائر. وبذلكِ فرغم سعة الأفق الذي انطلق منه في مشاهداته بالولايات المتحدة، انتهى به الأمر إلى خدمة أهداف وطنية وإمبريالية فرنسية في تسويغ استعمار الجزائر، كما في النظر إلى الاستعمار البريطاني بالهند لاحقاً. ورغم انضواء الطهطاوي في نطاق المشروع الوطني ببلاده؛ فإنّ تجربته اللاحقة تنطوي على فروقاتٍ أساسية. لقد خدم الطهطاوي الدولة المصريةِ لخمسة عشر عاماً بعد عودته من فرنسا. ثم انتهى به الأمر في عهد خلفاء محمد علي إلى أن يُنفى لأربع سنواتٍ إلى السودان (1850-1854) أيام عباس الأول حفيد محمد علي. وكان الغرض المعلن من إرساله إلى السودان تأسيس مدرسة ابتدائية هناك، تعبيراً عن الطموحات الاستعمارية

للدولة المصرية في ذلك البلد. لكن كانت هناك عوامل أخرى لإرساله أو نفيه، ومنها كراهية علماء الأزهر المصريين لثقافته الأجنبية المستجدة، وكراهية عباس الأول للعلم الفرنسي الأجنبي، وانزعاجه من النقد المبطّن للطهطاوي للاستبداد في رحلته. وفي السودان أقبل الطهطاوي على ترجمة كتاب فنيلون الفرنسي المسمَّى تلما خوسِ. وفيه أراد التعبير عن نقده للاستبداد، وعن الظلم الذي وقع به نتيجة إرساله القسْري إلى السودان. وقد صرَّح الرجل بذلك حين ذكر في مقدمة الترجمة أنه إنما قام بالعمل لتجاوُز الغمّ والبطالة اللذين نزلا به، وتصاريف القَدَر التي أحلّتْه بذلك المحلّ. وعندما اغتيل عباس الأول (عام 1854م) أعيد الطهطاوي إلى مصر على يد الخديوي سعيد باشا، آخِر أولاد محمد علي الأحياء. ومع ذلك فإنّ المنفى بالخرطوم ترك نُدبة في نفسه لم تتمح بقية عُمُره. وكما عرَّض في رحلته بالبدائية الإفريقية؛ وكذلك فعل في مقدمة ترجمة فنيلون، كذلك ذكر الشيءَ نفسَه في قصيدةٍ له أثبتها في عملٍ آخَر عن تاريخ مصر، وذكر فيها أنّ السودانيين بدائيون، ولا يطيعون أحكام الشريعة. وبذلك فقد تنكّر للانفِتاح على الحضارات والثقافات الأخرى الذي أظهره في رحلته. ثم أقصى به الأمر إلى تبرير الاستعمار للسودان، والمفيد للسودانيين ولحكامهمّ المصريين! ولهذا يمكن القول إنّ رحلات القرن التاسع عشر المتّسمة بالفضول والانفتاح تتّسم أيضاً بدعوى التملك والتفوق وإن ظهر ذلك بشكلين مختلفين لدى الطهطاوي وتوكفيل. ففي حين لا يلعب اللون: أبيض/ أسود دوراً بارزاً لدى ابن بطّوطة مَثلاً، يصبح لدى الطهطاوي حدوداً سياسية وثقافية. فحتى في المجال الديني يصبح الأبيض (المصري) أكثر مُراعاةً لأحكام الشريعة من الأسود. وهذا فضلاً عن أفضلية المصري باعتباره يملك دولة ونظاماً، ويملك حضارة وثقافة صنعتْهما ليس دولته فقط بل طبيعته الأفضل أيضاً.عند هيرودوت العوالم غير الإغريقية هي عوالمُ البرابرة. وعند ابن بطوطة عوالمُ الكفر هِي التي تقع خارج دار الإسلام. أمّا لدى الطهطاوي وتوكفيل؛ فإنّ النظرة قد ضاقت إلى حدود الدولة الوطنية أو القومية؛ مع وعيٍ أكبر بضرورة التحضير وضرورة الإخضاع للعوالم الأخرى المختلفة.

لقد شكلّت رحلة الطالب الطهطاوي بُعداً واحداً من أبعاد جدول الأعمال الطَموح للجنرال العثماني محمد علي في حكمه الطويل لمصر (1805-1848م)، والذي ترك تأثيرات عميقة على البلاد يكثر حولها الاختلاف. بدأ الحكم العثماني لمصر (عام 1517م). لكنّ الحكام المماليك السابقين ظلوا يمارسون سلطاتٍ بارزة في البلاد لحين الغزو النابليوني (عام 1798). ثم رحلِ الفرنسيون (عام 1801م) وسادت البلاد حالةٌ من الفوضى استمرت أربع سنوات، إلى أن نجح محمد علي في الفوز على منافسيه بالجبروت والذكاء وبقوة الكتائِب الألبانية التي كانت تأتمر بأمره. وقد سعى محمد علي بعد تجاوز دور المماليك، إلى تجاوز السيطرة العثمانية التي أتت به؛ من طريق اكتساب العلم الأوروبي والتدريب الأوروبي، والدولة الوطنية المصرية بالمعنى الحديث لذلك. لقد أراد إخضاع الجمهور المصري القلق، وسلطة العلماء الدينية، ومرجعية السلطنة العثمانية البعيدة؛ وذلك بالعلم الحديث، والمركزة، والجيش القوي المطواع. وقد كانت الرحلات لاكتساب

المعرفة بأوروبا، ومدرسة الترجمة المنشأة على يد الطهطاوي، سبيلان من السُبُل التي اختارها محمد علي لبسط سيطرته؛ وفي كلا الأمرين أدَّى الطهطاوي دوراً بارزاً. وما كان هناك في طفولة الطهطاوي ما يدعو لانتظار أو توقُّع الدور الذي قام به فيما بعد. فقد وُلد (عام 1801م) عام رحيل الفرنسيين عن مصر، في قريةٍ من قرى مصر العليا. وكانت أُسرته شريفة وثرية في الأصل؛ لكنّ ثروتها ضُربت بإلغاء نظام الالتزام من جانب الوالي الجديد في طفولة الطهطاوي. ولذلك فقد جاء إلى الأزهر ليتعلَّم ويصبح معلماً فيما بعد، لا أكثر من ذلك. وقد لفت ذكاؤه وطموحه الشيخ حسن العطّار (1766-1835م) الذي توسّط له لدى محمد علي ليكون إماماً للبعثة إلى فرنسا. وقد نبّهت رحلته الأنظار إلى إمكان تحقق دورٍ مستقبلي له، رغم أنَّ أحد معاصريه اعتبرها دليلاً على الفساد الذي نزل به. أعجب محمد علي بالرحلة، وأمر بترجمتها إلى التركية، وسارع إلى إسباغ مناعمه وحظوته على المؤلّف الشاب. لكنّ استحسان الوالي لم يجعل من الرحلة الطهطاوي مجرد إنفاذٍ لإرادته. بل إنّ الرحلة عكست طموحات شيخه النهضوي حسن العطّار، الذي كان إصلاحياً راديكالياً، مُغْرماً بالأسفار، وقد أقام علاقات معرفة وصداقة مع علماء الحملة الفرنْسية. ويذهب الطهطاوي إلى أنّ الشيخ العطّار نفسه هو الذي أوصى له بضرورة المراقبة الدقيقة للحضارة الجديدة، وتسجيل ملاحظاته. ولذلك ما كانت الرحلة ترفاً ثقافياً، ولا مسألة فنية آلية لما كان؛ بل كان لها هدفٌ بيدانموجي أو تربوي للإرشاد في عمليات النهوض. ما كان الطهطاوي يطالب مواطنيه بتقليد الأجانب؛ بل عرض المعارف التي ينبغي على زملائه وتلامذته أن يتعلّموها لخوض تجربة نهوضٍ مختلفة في ظلّ أحكام الشريعة. فالمعرفة لها موضوعية معينةٌ تنفصل عن الحضارة التي قامت عليها. وهو في هذا الأمر مُشابهٌ لجمال الدين الأفغاني (-1897) ومحمد عبده (-1905) اللذين اعتبرا المعارف الحديثة امتداداً وتطويراً للمواريث الإسلامية المفقودة في ديار المسلمين. رأى الطهطاوي أنّ (الانحطاط الإسلامي) ناجمٌ عن حركة استعادة الأندلس، وعن الجمود العثماني بعد الانطلاقة في القرون الأولى للسلطنة. وهذا الجمود يمكن تجاوُزُه باكتساب العلوم التي نسيها العثمانيون، واكتسبها الأوروبيون. وهكذا فقد كان الرجل شاهداً عيانياً، كما كان من طريق ذلك مشاركاً في التقاط الوقائع، وفي اكتساب العبَر والدروس. وهو يبحثُ عن تسويغاتٍ لمسعاه هذا بالتأكيد على (حب الوطن)، وعلى حِكمة الشعراء، ومثال النبي محمد (ص) في رحلاته إلى الشام، وفي إسرائه العجائبي إلى بيت المقدس. وهو معجبٌ بالفرنسيين الذين يترحلون سنواتٍ طوالاً بين الشرق والغرب، ويعرّضون أنفسهم للأخطار بسبب حبهم لوطنهم، وسعيهم لخدمته.

وبخلاف الطهطاوي، ما أنفق توكفيل وزميله بالولايات المتحدة وكندا غير تسعة أشهر. وقد اهتم بشمال الولايات المتحدة أكثر من جنوبها. ويذكر الباحثون أنه استمع إلى اليانكي أكثر مما استمع إلى الفرجينيين. وكان متشوقاً للاستماع إلى الاتحاديين والكاثوليك وأهل نيو إنغلند. لكنْ بالإضافة للميل الشخصي، علينا أن نلاحظ أنّ الرجل كان بيروقراطياً متوسط الأهمية، وأنه ذهب إلى أميركا لهدفٍ معيَّن متمثل في إصلاح نظام السجون. ثم

إنه ما كان راضياً عن الحالة في فرنسا بعد خلع شارل العاشر ومجيء لويس فيليب؛ وأراد أن يعرف كيف تبدو جمهورية اتحادية كبرى، وكيف يمكن الإفادة من نظامها وتجربتها. كما أنّ مستقبله الوظيفي كان نصب عينيه وهو يكتب كتابه. وهذه أمورٌ يؤكّدها جورج ويلسون بيرسون في دراسته عنه وعن كتابه. ومثل الطهطاوي ما كان توكفيل يريد من الفرنسيين أن يقلدوا التجربة الأميركية؛ بل أن يقارنوا من أجل الإفادة والاستفادة.

تتضمنِ الرحلتان عبر الزمان والمكان إذن عدة أبعاد. هناك من جهة الانتقال الفعلي من مصر إلى باريس، ومن باريس على نيويورك. وهناك الرحلة من ثقافةٍ إلى ثقافةٍ أخرى. بيد أنّ الأهمَّ من ذلك التغير الداخلي زماناً ومكاناً والذي يعيشُهُ الرحّالة ويعرفه ويبقى معه. ومن هذا الجانب في حين كان الطهطاوي ينتقل شخصياً عبر الزمان والمكان بكل المعاني؛ فإنّ توكفيل كان ينتقل إلى عالمٍ أليفٍ مبدئياً لكنه ما كان مرتاحاً تماماً بسبب أصوله الأرستقراطية التي لا تقبل الشعبويات. والمعنى الأخير للمرحلة الذي نودُّ الإشارة إليه هو المتصل بالانتقال من زمانٍ إلى زمان. فالطهطاوي كان بمعنىً من المعاني يرى في فرنسا مستقبل مصر، وتوكفيل يرى في أمريكا الانتقال من النظام القديم إلى النظام الديموقراطي. ولايمرّ ذلك الأمر بسهولةٍ لدى الرجلين. لدى الطهطاوي بسبب موروثه الإسلامي، وكراهيته للتقليد، ولدى توكفيل بسبب اعتزازه بأرستقراطيته من جهة، وبالثورة الفرنسية حاملة الجديد وحدها من جهةٍ ثانية. بيد أنّ مُصالحة مع النفس من نوعٍ ما حدثت لدى الرجلين، ولدى توكفيل أكثر مما لدى الطهطاوي.

وبين النظر الذاتي والنظر المستقبلي يحسُنُ هنا التطرقِ إلَى مسألة المرأة لدى الرحّالتين. أما توكفيل فرغم ضخامة حجم الكتاب لا يكاد يلتفت إلى النساء الأميركيات ومشكلاتهنّ. بينما يبدو اهتمام الطهطاوي مركّزاً حول الفرنسيات. وملاحظاته يختلط فيها الاستحسان بالاستهجان؛ ولذلك لا يمكن اعتبارها موقفاً من جنس النساء، أو من الحضارة التي ينتمين إليها. بيد أنَّ الأمر لدى الرجلين يتصل بالحضارة والطبيعة. فطبائع النساء غير طبائع الرجال. وطبائع الشعوب تحكم مدى قدرتهم على تقبُّل الحضارة.

والواقع أنه يكون من المهمّ هنا أن نعرف كيف كان الطهطاوي ينظر على ما يكتبه. فهو يربط عمله بأدب الرحلة تارةً, وبالأدب والثقافة التي ينبغي توافرهما للرجل الفاضل والكامل. لكنْ لا ينبغي أن ننسى أيضاً أنّ النصَّ يمثّل ثقافة رجلٍ درس في فرنسا، وتعرّض لأعمال مونتسكيو (يسميه ابن خلدون الغرب) و ولتير وروسّو وكوندورسيه وديكارت وراسين وكورنياك ونيوتن. وقد قسَّم الرجل كتابه إلى ستة أقسام: الرحلة إلى باريس، ونظرة في الحضارة، وشرح لعادات الفرنسيين وطبائعهم وأخلاقهم وعلومهم، وتقرير طويل عن أعمال الطلبة بباريس، وموجز فِي التطورات السياسية الفرنسية بما في ذلك أحداث (العام 1830م). ورغم هذا الخليط، أو بسببه، فإنّ الطهطاوي ظلَّ حذراً في عرض آرائه أو آراء غيره؛ بخلاف توكفيل الذي كان حراً فِي القراءة والعرض. الطهطاوي كان عنده الباشا الذي أرسله والذي لا يسمح بالمزاح أو التشكك أو الجرأة، وتوكفيل ما اعتبر نفسه في رحلته موظفاً ولا مطالباً حقيقةً بمهمةٍ كبرى. توكفيل يعرض

تجربـة ثقافيـة وديمقراطية أخرى بمزيجٍ من الإعجاب والحَذر؛ بينما الطهطاوي يدعي أنه يعرض حضارة مادية ناجحة ومتقدمة، بيد أنها منهارةٌ تماماً في جوانبها الأخلاقية!.

****

*) فصل من كتاب: joumeys to the other shore muslim and westem tavelers in search of knowledge.2006